من سلالة من طين . وقد جاء فى القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ولم يقل أحد أن خلق الأحياء جميعاً من الماء يمنع تسلسل الإنسان من مادة الطين ، فإن الأصل لا ينعدم إذا خرجت منه الفروع على التسلسل والتدريج ، أو خرجت منه دفعة واحدة بغير تسلسل ولا تدريج . وحذار أن نقف فى هذه المسألة كما وقف المجادلون من قبل فى مسألة الأرض واستدارتها ودورانها ، فإنهم يدعون لأنفسهم ما لا يجوز لأحد أن يدعيه باسم العلم أو باسم الدين ، وفوق كل ذى علم عليم .

عباس محمود العقاد

لو أقر المجمــــع !..

للأســــتاذ على الطنطاوى

أديت أمس حسابى فى المطعم وتهيأت للخروج ، فسمعت من ورائى لهجة غريبة ... فتلفتّ فرأيت على مائدة قريبة منى ، عراقياً بسيدارة ، ومعه شامى بعمامة مطرّزة ، ونادل المطعم قائم أمامهما ، والعراق يقول له :

— ماعون باجيلا على تِمّنْ ، وكَمَّونَه .

والنادل مبهوت ، يقول :

— إيه ؟! إيه ؟!

فيقول الشامى : العمىْ ! شو ما بتِفهم عربى ؟ بدُّو ماعون ما بتعرف الماعون ؟ يعنى طبق غسيل ، وصابونِه .

— النادل : ليه يا أم ؟

— الشامى : ليش ؟! بَرْكى بدّو يتغسل !

(ويضحك من نكتته)

— النادل : يتغسل ! بعيد الشرّ ، عاوز تؤول يشطَّف .

— الشامى (مغرقاً فى الضحك) : يشَّطَّف ! يا عيب الشوم ، شو ما بتستحى انتِه ؟

— العراق : والله ، مادا أفتهم ، حشى غريب هواية ، يابَهْ ، ما تِحشى عربى ؟!

— النادل : ما تحكى عربى ، يا خويا ؟!

— الشامى : لكان عَمْ يحكى أرناؤوطى ؟! هذا عربى !

— النادل : أمّال بؤول إيه ؟

— الشامى : بؤول بدّو كوسا محشى ومهوايه ، يعنى مروحة

* * *

ولم أستطع أن أتقاعس أكثر من ذلك ، وخفت أن يفضحنى الضحك ، فخرجت وأنا أسائل نفسى : ماذا يكون لو أقر مجمع اللغة (العربية ...) اقتراح الأستاذ فريد أبو حديد بك ، الذى يدرسه الآن أعضاؤه ؟

والذى يقول فيه «فلو كانت العامية لا تزيد على أنها استخدمت أداة للتعامل فى الأسواق والحياة اليومية لكان أمرها هيناً ، ولكنها منذ برهنت على صلاحها للتعبير الأدبى صار من الممكن أن تنطلق فى سبيلها متباعدة عن الفصحى حتى ينتهى بها الأمر إلى الاستغناء عنها ، بل إن جمال أساليب التعبير العامى إذا بلغ مداه كان أجدر أن يسترق القلوب لأن تلك الأساليب أقرب إلى النفوس والأفهام من الفصحى لشدة اتصالها بحياة الكافة .

ولقد كان من أكبر ما عمل على تقويض أركان اللاتينية ظهور كتاب مبدعين فى اللغات القومية الأوربية ؛ وقد كانت تلك اللغات عامية فى وقت من الأوقات بالنسبة للغة اللاتينية ، فقد ظهر دانتى فى إيطاليا ، وكتب روائع قومه بلغته (إلى أن قال) ولكنا لا نخشى على العربية الفصحى أن يكون مآلها هو مآل اللاتينية لعدة أسباب :

١ — إن العامية لم تستطع إلى الآن (تأمل) أن تتسامى إلى آفاق الفكر العليا ، فإنها لم تزد بعد (تأمل) على أن تكون وسيلة للتعبير الساذج والأحاسيس الابتدائية ، ولم يظهر فيها بعد (تأمل) أمثال النوابغ الذين أنتجوا روائعهم الخالدة ، بلغاتهم الأوربية الحديثة الدارجة .

٢ — إن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئاً يقرب من الفارق بين اللغات الأوربية الدارجة وبين اللاتينية ، فما زال التفاهم ممكناً فى سهولة بين المثقف وغير المثقف بلغة سليمة بسيطة فصحى .

غير أننا لا ينبغى أن نتجاهل الخطر الماثل فى لباقة اللغة

العامية ، وصلاحيتها كأداة للتعبير الأدبي فهو إن كان اليوم محدوداً فقد يكون غداً أقوى وقد تصبح أقدر على الأداء الأدبي السامي من الفصحى إذا فتن الشباب المثقف بالإنتاج الفكرى باللغة العامية ، وعملت أجيال منهم على الارتفاع بها إلى المستوى الأدبي الذي يجعلها لغة فكر وتعبير صحيح » اه .

رأفكر ماذا يكون لو فتن الشباب المثقف هذه الفتنة (نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن) ، وصار فى الدنيا لغة شامية ولغة مصرية ولغة عراقية ، ونشأ فى كل واحدة منها أدباء وشعراء ، كما هى الحال فى الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وإن بقيت اللغة الفصحى (كما يريد الأستاذ) لغة القرآن والعلماء والمساجد والمعاهد العالية ، وماذا يصنع إذن صاحب المطعم الذى كنت آكل فيه آنفاً ؟

إنه لا بدّ له من ترجمان ، عارف بهذه اللغات ، واقف عليها ، متخصص فيها ، عالم بدقائقها وسنن أهلها فى كلامهم ، ليفهم النادل أن الساعون فى بغداد هو الطبق فى مصر ، والصحن فى الشام ، وأن التشطيف فى مصر غسل الوجه واليدين ، ولكنه فى الشام غسل الـ . . . أعنى الاستنجاء ، وأن الصمّونة فى بغدادهى رغيف الخبز الأفرنجى ، ويسمى فى دمشق الأفرنجونى ، والباجيلاّ الفول والتمّن الرز ، وأن الـ (هْواية) فى العراق ، صفة للشىء الكثير ، وهى فى غوطة دمشق الصفعة على الوجه ، وأنك إذا (بسطت) رجلا فى الشام ومصر فقد سررته ، وإذا (بسطته) فى العراق فقد ضربته ، والمبسوط المضروب (عَلْقة) ، وهى فى الشام (فَلَقة) ، والتقليع فى الشام الطرد من الدار ونحوها وفى مصر نزع الثياب وأن التقفيل فى مصر إغلاق الباب وله فى الشام معنى هو أخبث من أن يشار إليه ، و(هُون) فى الشام هنا ، وفى العراق (هنانا) ، والهون فى مصر هو الهاون الذى يدق به واسمه فى الشام الهاون ، هذا عدا عن الكنايات السائرة والمجازات المشتهرة ، وهى كثيرة فى كل بلد لا يعرفها إلا أهله يلحنون بها فى أحاديثهم ، ويسخرون بها من الغريب ، وعدا عن اختلاف النطق وما ينشأ عنه من اختلاف المعنى ، فن المصريين من يميل بالسين إلى مخرج الزاى ، ومن هنا سارت النكتة فى دمشق عن مدرس مصرى جيء به إلى مدرسة بنات ، فقال لإحداهن مؤنباً :

— إيه الأسباب التى منعتك من إعداد الدرس ؟

وفى العراق يجعلون القاف جيما معطشة ، وقد سألت حوذياً يوم وصلت بغداد ، أن يأخذنى إلى ضاحية نزهة ، فقال :

— تروح باب شرجى ؟

فكدت أبطش به ، وما يريد إلا (الباب الشرقى) وهو من متنزهات بغداد .

وليس يجيء هذا الترجمان إلا من مدرسة ، فلابدّ لنا إن أقر المجمع اللغوى هذا الاقتراح من أن ندرّس هذه اللغات الشرقية الحية فى مدارسنا الثانوية ، وننشىء لها قسما فى كلية الآداب ، أو أقساماً لأن اللسان الشامى سيكون فيه لغات متعددات ، فلغة دمشق ليست لغة حلب ، وهى تخالفها فى معانى المفردات ، وفى تركيب الجمل ، وفى طريقة النطق ، ولغة حلب غير لغة حمص ، ولغة حمص غير لغة حماة ، وكلها تخالف لغة دير الزور ، وهذه تخالف لغة البادية ، فصار عندنا فى الشام لغات فى كل منها لهجات ، فلهجة أهل دمشق غير لهجة أهل الغوطة ، ولهجة هؤلاء ليست لهجة جبل القلمون ، وفى القلمون عشرون لهجة تختلف اختلافاً بيناً ، وفى كل منها شعر ··· وأدب ··· إى والله وموسيقى ··· وقس على ذلك ألسنة لبنان وفلسطين والعراق ومصر والسودان والحجاز واليمن وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، واجمع هذه الألسنة بما فيها من اللغات واللهجات ، تجدها تحتاج إلى عشرة أساتذة لهم كراسى فى الجامعة ، وتحتمل عشرة دبلومات ، يكتب صاحبها على بطاقته (فلان ، دبلوم اللغات العراقية) أو (دبلوم اللهجات اللبنانية) ··· ودبلوم فى أصول هذه اللغات ومصادرها ، ودبلوم فى نحوها وصرفها المقارن .

وعندئذ يكون شكوكو من أمراء الشعر الذين تدرس آثارهم فى الجامعة ، واسماعيل ياسين من أمراء النثر ، ويكون من تعبيرات النقد الجديد ، أن تقول للكاتب المقعد الذى لا يفهم « إنه يكتب بالعربى » كما يقال فى أوربة عن الكاتب الفرنسى المحدث إذا أغرب وعقّد ، أنه يكتب باللاتينى .

وعندئذ ينشأ فى كل لسان ، تراجمة يترجمون إليه الآثار العربية لتحفظ فى المدارس ، ويربّى بها النشء على البلاغة كما ترجمت إلى الفرنسية آثار دانتى وفرجيل ، فتحفظ الطلاب فى دمشق قول المتنبى ، مترجماً هكذا :